

# الحياة السياسية في نيابة الجزائر إبان عصر الدايات ثورة ابن الشريف الدرقاوي ضد الأتراك (في مطلع القرن التاسع عشر)

## الفصل الأول

### مقدمة :

استهل القرن التاسع عشر بادلاع اكبر واخطر ثورة شعبية على الاتراك منذ مجيئهم الى نيابة الجزائر ، الا وهي ثورة الطريقة الدرقاوية ، احدى فروع الطريقة الشاذلية ، وقد تزامن انتشار لهيب هذه الثورة مع تفاقم الوضع السياسي والاقتصادي لحكومة الدايات ، لهذا كان تهديدها خطيرا وكبيرا ، مما جعل رد فعل الاتراك عليها عنيفا وقاسيا ، خاصة اذ عرفنا ان اتباع هذه الطريقة لم يدخروا وسعا بمهاجمتهم لأول مرة في عقر دارهم وعلى مختلف الجبهات ، ولم يستطيعوا القضاء عليها ، رغم الامكانات المادية التي جندوها الا بعد مرور عشر سنوات على اندلاعها . وذلك بسبب اتساع المساحة التي غطتها ، ولا تختلف هذه الثورة عن الثورات السابقة التي قامت على الوجود التركي ، والتي تميزت بالجهوية والمحدودية ، بسبب قوة روح العصبية ، باعتبار ان زعماءها كانوا رجال قبائل ، مما افقدها عنصر الشمولية وجعلها لا تشكل خطرا كبيرا على خلفاء خير الدين ، الذين افلحوا في استغلال روح العصبية وزرع روح التنافر والخلاف بين القبائل ، واستطاعوا بذلك ان يحافظوا على أمنهم ووجودهم . لكن الشيء الجديد في هذه الثورة هو ان زعماءها وقادتها كانوا من رجال الطرق الصوفية الذين كانوا قبل هذا التاريخ حلفاء الاتراك وانصارهم ،

لهذا اتخذت هذه الثورة صفتها الشعبية الواسعة بموازرة هذه الشريحة الاجتماعية التي كانت تتمتع بنفوذ روحي ومادي في المجتمع الجزائري في تلك الحقبة من التاريخ.

وهنا يطرح نفسه السؤال التالي : ما الاسباب التي دفعت برجال الطرق الصوفية الى الانتقال من صف المدافعين عن الاتراك الى صف الرعية والدفاع عن مصالحها في وجه الحكام الاتراك ؟ قبل ان نجيب على هذا السؤال تجدر الإشارة الى ان الاتراك استغلوا النفوذ السياسي والديني الذي كان يتمتع به رجال الطرق الصوفية في المجتمع ، فتقربوا منهم واعتمدوا عليهم في بسط سيطرتهم على الجزائر ، وكسر شوكة القوى السياسية التي حاولت الوقوف في وجههم . وبذلك أصبح رجال الطرق الصوفية القوة الثانية بعد الاتراك ، مما جعل هؤلاء يمنحونهم الكثير من الامتيازات الاقتصادية وعلى رأسها جباية الضرائب في كثير من مناطق النية ، بالإضافة الى تخصيص جزء من الارباح التي كانت تدرها القرصنة البحرية ، كما كانوا يستفيدون من الهدايا الاعيادية في المناسبات الدينية والاعياد . ومن هذا المنطلق اسند لهم دور الوساطة بين الاهالي والحكومة التركية (١) .

ولكن هذه العلاقة الحميمة بين الطرفين لم تدم طويلا ، فظهرت بوادر التآزم بينهما منذ نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر بسبب التحول الاقتصادي الذي شهدته الجزائر والمرتبط بنضوب موارد القرصنة التي كان يعتمد عليها الاتراك في تدعيم نفوذهم وسيطرتهم فيها . وبسبب خلو النية من موارد اقتصادية كافية لتلبية احتياجات الحكومة التركية المالية للمحافظة على استقرارها والحيولة دون ثورة الجند ، ولم يجد الاتراك وسيلة لتوفير المال الا بمضاعفة الضرائب على الاهالي وتجريد الحملات العسكرية المتتالية لارغامهم على الدفع (٢) . وقد اثارت هذه الحملات حفيظة المرابطين الذين لم يستطيعوا ان يفقوا مكتوفي الايدي امام الشكاوى المقدمة اليهم من ضحايا جشع البايات من الاهالي ، بالإضافة الى ان مصالح رجال الطرق الصوفية تضررت من جراء هذا التحول الاقتصادي فتقلصت امتيازاتهم السابقة ، وتغيرت نظرة الاتراك اليهم بعد التطور الذي شهدته الطرق الصوفية ذات المنشأ المغربي في الناحية الغربية من النية ، والذي ترتب عليه تمتين العلاقات مع المغرب الأقصى .

### فساد النظام التركي:

كانت نتيجة افتقار الاتراك لقاعدة شعبية تساندهم وتؤازرهم ، ان انطبعت نظرتهم للاهالي بالحيطة والحذر، والخوف من انفلات السلطة من بين ايديهم ، واصبحت كل المناصب العالية والرتب القيمة مقصورة عليهم ، اما بقية طبقات المجتمع فكانت ذليلة . وحتى القوانين والتشريعات التي سنوها ، لم تكن عادلة بل مجحفة وقاسية (٣) .

ورغم ان الاتراك كان بإمكانهم استغلالهم الخطوة التي يتمتعون بها لدى الاوساط الشعبية في بداية مجيئهم لكسبها الى جانبهم ، الا ان شيئاً من هذا القبيل لم يحصل ، بل اقاموا بينهم وبين الشعب حاجزاً من الوسطاء واعتبروا انفسهم دائماً الاسياد وحكموا البلاد باستبداد مشابه لاستبداد امراء الجمهوريات الإيطالية (٤) .

وحاول الاتراك الاعتماد على فكرة التضامن الاسلامي لترسيخ نفوذهم لدى مختلف الاوساط الشعبية ، بالتقرب الى المرابطين وشيوخ الزوايا ، ومصاهرتهم ومنحهم الامتيازات ، الا انهم اخفقوا في خلق اطار طبيعي للاتصال بالرعية بهذه الوسائل ، وسرعان ما شكلوا ارستقراطية جديدة ذات نظرة مغلقة مبنية على اصول عنصرية ، احتكرت وحدها السلطتين السياسية والاقتصادية (٥) .

وقد تفسر هذه السطحية بعجز الدولة بانظمتها وأدواتها عن بسط حكمها ، لان هذه الادوات والانظمة في واقع الامر كانت أدوات حرب اكثر منها أدوات حكم (٦) . ولنا في الشعر الشعبي شواهد كثيرة تدل على المعاناة من الفساد والضغط الذين كانا مسيطرين على السكان من جراء فساد نظام الاتراك ، كقول احدهم :

عاتوا عتوا على الخلق وجاروا      فكانوا اكثر المباد وباروا  
فرفع الكل الاكف ودعوا      بما به اجاب الله ورجوا (٧)

اما الزباني ، وهو من المؤرخين المقربين للسلطة التركية ، فيقول عنهم « .. واعلم ان الاتراك ، لما تمهد لهم الملك بالجزائر ، كثر ظلمهم وفسادهم ، بحيث لا يليق ان يذكر ما كانوا منه من الظلم والمناكر وتواتر ذلك على اللسنة بغاية التواتر ، فاشتغلت العلماء من ذلك في نظمهم ، وسألت الناس ان يزيل عنهم ما حل من ظلمهم .. » (٨) .

من خلال هذه النظرة الموجزة نلاحظ ان النظام التركي كان منذ بدايته يسير بسرعة الى الانهيار السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، لانه اعتمد في اساسه على القوة العسكرية وحكام لا تربطهم أية روابط طبيعية بالبلد والسكان ، وهذا مادفعهم لان يتجاوزوا حدود سلطتهم القانونية « ويرتكبوا الفضائح ويمارسوا الظلم والقسوة تجاه الرعايا والاعيان » (٩) .

وقد وصل فساد النظام التركي الى اقصاه في عهد الدايات ( ١٦٧١ - ١٨٢٠ ) وهي الفترة السياسية التي اشتدت فيها حدة الثورات الشعبية على الوجود التركي في نيابة الجزائر ، وتجلت اول ظاهرة من ظواهر الفساد في هذا النظام بانحطاط سوية الدايات الاجتماعية . ونستدل على ذلك من قول احدهم وهو يخاطب احد الدبلوماسيين الفرنسيين بقوله « .. انا رئيس عصابة من السراق ، ومهنتي هي ان

أخذ وليس ان اعطي . . .» (١٠) . فهدف هؤلاء الدايات كان الاستبداد بالسلطة وجمع الاموال ، وليس الرقي والازدهار الحضاري ، لان غالبيتهم من بيئات منحطة في الاناضول ، توصلوا لرتبة الدايات بعد ان مارسوا عدة اعمال ووظائف بسيطة في مدينة الجزائر ، فمنهم من كان اسكافيا او حمالا او حارسا او كناسا (١١) . ووصلوا الى السلطة في ظروف غير طبيعية ، منها على سبيل المثال دعم اغنياء اليهود ( بوشناخ ) . اما الظاهرة الثانية من ظواهر الفساد فهي الاسراف والتبذير والرشوة ، وهذه الصفة الذميمة جعلت الكثير من الدايات لا يتورعون من بيع ذممهم لليهود والاجانب من الاوربيين مقابل الكماليات البسيطة (١٢) . وبذلك يكون الدايات قد تركوا مقاليد امور الدولة وشؤونها الى مجموعة من الضباط والموظفين واليهود والاجانب ينهبون خيرات البلاد وثرواتها (١٣) . فتحوط مهمة حكومتهم الى ملء الخزينة العامة بالاموال لتنتقل فيما بعد الى حاشيتهم لتدعيم النظام والمحافظة عليه ، حتى ان النيابة على تعبير بن شنهو « اصبحت في عهد الدايات عبارة عن قطعة من الحلوى كل موظف يأخذ منها حسب ما يخوله منصبه . . .» (١٤) .

ولم يبذل الدايات جهدا في علاقتهم مع سكان النيابة نحو الاحسن والامثل ، فلم تكن تربطهم بالبلد اية اواصر او روابط من شأنها ان تجعلهم حريصين على سمعة النيابة سوى الجانب المالي ، وكان هذا احد اسباب الثورة .

### السياسة العربية :

أخذت حكومة الاتراك ، في اواخر القرن الثامن عشر واولئل القرن التاسع عشر ، تفقد بالتدريج صفتها البحرية التي اتسمت بها منذ تاريخ تأسيسها ، ليزداد ارتباطها واهتمامها بالارض . اي بالموارد الداخلية . لكن هذا الاهتمام بالشؤون الداخلية للنيابة كانت نتائجه وخيمة على السكان وعلى مستقبل الاتراك في الجزائر ، لان هذا التحول السريع من سياسة الى سياسة لم يعتمد على خطة مدروسة مسبقا تمتص الردود الشعبية عليها ، باعتباره يمس اوسع طبقة اجتماعية هي طبقة الفلاحين التي كانت تشكل الاغلبية والعمود الفقري الذي يعتمد عليه اقتصاد النيابة . هذا بالإضافة الى ان دور الاتراك في تطوير البنية الاقتصادية لنيابة الجزائر كان سلبيا ، فلم يسهموا اسهاما محسوسا وجديا في انفاق رؤوس الاموال التي جمعوها من القرصنة في تحسين احوال البلاد ورفع مستواها الاقتصادي ، يكون كفيلا بتخفيف الاثار السلبية التي تركها هذا التحول ، لهذا بقيت الجزائر تحتل مرتبة ثانوية اذا ما قورنت بتونس او طرابلس او بعض البلاد المشرقية (١٥) .

ورغم تنوع الثروات والموارد الطبيعية ، فان الحياة الاقتصادية في بداية القرن التاسع عشر كانت متدهورة وتعاني من عدة مشاكل وصعوبات عاقت تطورها

وازدهارها . ويأتي على رأس هذه العوائق طبيعة النظام التركيبي ذي الاصول القطاعية ، فضلا عن الاساليب العتيقة المستخدمة في الميدان الزراعي والصناعي والتجاري ، واحتكار الحكومة لهذه الأنشطة(١٦) ، والحيولة دون نشوء بورجوازية وطنية تقوم بتنشيط الحياة الاقتصادية والاستعاضة عنها بالتجار الاجانب ، بخاصة من اليهود والفرنسيين ، الذين اصبحوا يتصرفون في النيابة وكأنها مستعمرة(١٧) . وعامل اخر كان وراء تدهور الحياة الاقتصادية وهو موجات الاوبئة والامراض والمجاعات التي كانت تجتاح البلاد في فترات متلاحقة تكاد تكون غير منقطعة .

امام هذه الاوضاع الاقتصادية المتدهورة راح الدايات يظالبون البايات بموارد اقتصادية بديلة لتغطية النقص المفاجيء الذي سببه ضعف القرصنة ، فما كان من هؤلاء الا مضاعفة استغلالهم لمناطقهم بدقة وبمضاعفة الحملات العسكرية على القبائل لارغامها على دفع الضرائب لادارة حكومة الدايات(١٨) . ويجمع المؤرخون ، ان التوسع الذي شهدته النيابة ، في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، في تنويع الضرائب دون الاعتماد على مصادر اقتصادية اخرى ، ادى الى جعل الحكومة التركية اداة استهلاك تعيش على مايدره عليها الجهاز الضريبي ، دون السعي الى تنمية مرافق الدولة الاقتصادية ، فكل ما كانت تنتجه النيابة من موارد يذهب بشكل مرتبات وجرايات للمؤسسة العسكرية وموظفيها . وكانت عملية جباية هذه الضرائب تتم تحت الضغط والارهاب في اغلب الاحيان ، مما دفع الحكام الاتراك الى تجهيز الحملات العسكرية(١٩) لتأديب الثوار وارغامهم على الدفع لدى اية بادرة مقاومة او تهرب من دفع المبالغ المالية المستحقة عليهم ، مما زاد في الهوة بين الطرفين .

واحست الفئات الاجتماعية المحرومة ، وعلى راسها الفلاحون ، أن كل مجهودتها موجهة الى خدمة الغير ، وتوفير الرفاهية للطبقة التركية دون التمتع بآية حقوق مقابل ذلك ، فرفضت هذه الاجراءات الجديدة واعتبرتها تعسفا وجورا عليها تستوجب محاربته .

لذلك يمكن اعتبار هذه الثورة ، كبقية الثورات ، رد فعل من جانب السكان على التصرفات الجائرة الناتجة عن الاجراءات المالية التي مارسها البايات والدايات . وكان لازدياد الضغط المالي على الارياف اثار وخيمة ، اذ ارهق كاهل الفلاحين بكثرة الضرائب ، وقد عبرت لنا شهادات المؤرخين المعاصرين والاشعار الشعبية عن مدى ماكان يقاسيه ويعانيه الفرد الجزائري من جراء ثقل الضرائب ، وحرق المحاصيل الزراعية ونهب الاملاك ومصادرة قطعان الماشية(٢٠) .

وفي المنطقة الغربية ، وهي مركز رئيس للطرق الصوفية وبخاصة ذات الاصول المغربية ، كما كانت منطلقا لخطر الثورات ضد الاتراك في الربع الاول من القرن التاسع

عشر ( الدرقاوية والتيجانية ) ، كان الوجود التركي قويا ممثلا بالحامية التركية والقولوغلى وقبائل المخزن ، وبالرغم من اساليب الاتراك التعسفية كان السكان يتحملون ذلك على مضض بسبب وجود الاسبان في وهران . ولكن تحرير وهران ١٧٩٢ ازال البسرر الرئيسي لهذا الوجود التركي الثقيل ولتحمل السكان لاذاه .

### الدور المغربي :

لما عجز الاتراك عن قمع الثورة بعد ان لجؤوا الى جمع الوسائل لاختمادها ، خاطبوا ملك المغرب « مولاي سليمان » ، ورجوه ارسال شيخ الطريقة « مولاي العربي الدرقاوي » لتهدئة الثوار (٢١) . واعتمادا على الرسائل التي تبودلت بين شيخ الطريقة والسلطان المغربي ، نستنتج ذلك الدور الرئيسي الذي اضلع به هذا الامير في اثارة هذه الثورة ضد دايات الجزائر . ويظهر من هذه الرسائل ان السلطان كان على استعداد كامل للتدخل عسكريا في المنطقة الغربية من النيابة ، وذلك لتحقيق الاهداف التقليدية لسلطين المغرب .

وحسب الرسائل نفسها ، يبدو ان الذي عاق السلطان عن تحقيق هذا الهدف كان الظروف الطبيعية وانه كان راضيا عن الخطوات التي قام بها الشيخ مولاي العربي الدرقاوي ، وعلى رأسها البيعة التي كتبها سكان مدينة تلمسان للسلطان المغربي (٢٢) .

ورغم ما اوردناه عن تورط السلطان مولاي سليمان في هذه الثورة ، ينفي المؤرخون المغاربة تورط مولاي سليمان في احداث الثورة ومجرياتها ، ويجمعون على رأي واحد وهو ان السلطان ، لما قدم عليه الوفد الجزائري ليقدم له البيعة ، اقتصر دوره فقط على تحقيق المصالحة بين الرعية والاتراك ، وبذلك يكون قد سلك مسلكا هو ارفق بالجميع ، الاتراك والاهالي .

ولكن الاحداث التاريخية تؤيد ما ذهبنا اليه ، وهو تورطه في هذه الثورة وذلك ردا على تدخل الاتراك في احداث ثورتي « محمد بن عبد السلام » و « زينان في الريف » (٢٥) . الا ان هذا الموقف التاييدي للثورة لم يستمر طويلا ، اذ ادرك السلطان ان ميزان القوى بدأ يتحول لصالح الاتراك بعد ان استطاعوا كسر الطوق الذي فرضه ابن الشريف على مدينة وهران . فأمام المنعطف الجديد الذي وصلت اليه الثورة ، والذي لم يكن واردا في حسابات السلطان ، وبسبب ضعف المغرب الذي انهكته الحروب الاهلية في القرن الثامن عشر ، لم يجد السلطان مخرجا الا انكار رسوله الذي ارسله الى الثوار ، بل وسارع في ارسال رسول جديد الى مدينة تلمسان ، لا عادة تلاوضاع الى ما كانت عليه سابقا ، وشجب تصرفات شيخه ومقدمه « ابن الشريف » (٢٦) .

كان سلاطين المغرب الأقصى حجرة عثرة امام التوسع التركي في الناحية الغربية من النيابية ، وظل هذا دأبهم حتى زوال حكم الاتراك في الجزائر . وعلى الرغم من ذلك حاول الاتراك عدة مرات خرق هذا السد النيع ، الا انهم اخفقوا . وقد رفض المغاربة ، عند دخول الاتراك الى منطقة الشمال الافريقي ، ادعاءهم السيادة على العالم العربي والاسلامي . وقد بدا للمغرب في عهد بعض سلاطينه العظام ، طموح في ضم الجزائر وتونس وتحقيق امبراطورية الموحدن ، وهذا ما يشير اليه المؤرخ المغربي في كتابه ( النفحة المسكية ) بقوله : « والعثمانيون انما عملوا الامارة وقادوا الامر في الحقيقة نيابة وامانة يؤدونها الى من هو احق بها واهلها ، وهم مواليها وساداتها الشرفاء ملوك بلاد المغرب . » ( ٢٧ ) .

ولتحقيق هذا الطموح السياسي ، اعتمدت سياسة المغرب داخل الاراضي على الطرق الصوفية . وكانت مراكزها تشكل خيطا يمتد من فاس الى تلمسان وتونس ، مروراً بالواحات ، وكانت زوايا هذه الطرق على اتصال فيما بينها ، تنقل الاخبار الى داخل النياية ، وارااء التسيوآ من فاس والرباط . وقد استغل المغاربة الهجمات الالوية على النياية ، والصراعات السياسية داخل النظام التركي ، لبسط سيادتهم على اجزاء منها ، لكن عدم قدرتهم على المواجهة العسكرية مع الجيش التركي جعلتهم لا يتمسكون طويلا بهذه المناطق .

لهذا اعتمد سلاطين المغرب سياسة الاقلال من هيبة النياية والبحث عن حلفاء لابادتها ، ولما كان المغرب قد لعب دورا اساسيا وفعالا في ثورة الطريقة الدرقاوية ، بتشجيع الثائر ابن الشريف وكل المناهضين للاتراك من الجزائريين ، واعانتهم بالمال والسلاح ، فسناحاول ان نلخص هذا الدور بايجاز .

**التعريف بابن الشريف :** تزعم هذه الثورة في الناحية الغربية محمد بن عبد القادر بن الشريف الفلتي ، ويعود اصله الى قبيلة بربرية هي كسانة المقيمة على ضفاف وادي العبد في ضواحي سهل « غريس » القريب من مدينة معسكر . تعلم مبادئ اللغة العربية في مسقط راسه في قرية اولاد بالليل ، ثم التحق بزاوية القيطنة التابعة للطريقة القادرية ، التي كانت تحت امرة الشيخ محي الدين ، والد الامير عبد القادر الجزائري ، حيث نبث فيها مدة من الزمن ، وبعدها سافر الى زاوية بوبريج في المغرب الأقصى ، وهناك اتصل بمولاي عبد الله محمد الدرقاوي ، الذي لقننه مبادئ الطريقة الدرقاوية واجازه فعاد الى قريته وفيها اسس زاوية لتلقين الناس اوراد الطريقة . ويظهر ان هذه المهمة قد اسندت اليه من طرف شيخه ، الذي عينه مقدما للطريقة في الناحية الغربية من النياية ( ٢٧ ) .

لقي ابن الشريف التأييد الواسع من جميع القبائل الصحراوية التي صارت ، كما يقول احدهم « . . كلها شيعته تهدي اليه الهدايا وتعطي العطايا » ( ٢٨ ) . واثناء لقاءاته

مع مختلف القبائل كانت تشكو اليه ما يصيبها من ارهاق بسبب ما يفرضه عليها الاتراك من مغارم وضرائب ، فكان ابن الشريف « يمنيهم بالفرج القريب » . ويقال ، حسب الروايات المعاصرة التي رجعنا اليها ، ان ابن الشريف كان قد طرح فكرة اسلان الثورة على الاتراك في اول لقاء له مع شيخه مولاي العربي الدرقاوي الذي استحسناها . ويظهر ان الشيخ كان على علم بالمضايقات التي كان يمارسها رجالا الحكومة التركية على تحركات افراد الطريقة الدرقاوية ، وعلى رأسهم مقدمها ابن الشريف ، الذي فر الى الجنوب بعيدا عن متابعات البايات وجواسيسهم . ومن هناك أنتقل الى فاس حيث لقي شيخه في قرية بني زروال ، فاشتكى له مالحق به وبمريديه من جور الاتراك . وقد نقل الينا الزباني الحوار الذي دار بين الطرفين « ياسيدي ان بوطننا قوما يتال لهم الترك لا شيء لهم من دعائه الاسلام ، ويظلمون الناس ولا يعثؤون بالعلماء والاولياء ، نسأل منك ان يكون هلاكهم على يدك لتستريح منهم العباد وتظهر منهم البلاد » فقال له شيخه عليك بجهادهم وقتالهم ، وان الله ينصرك عليهم بكما لهم . « (٢٩) » .

### مراحل الثورة :

استغرقت عملية الاستعداد وجمع اكبر عدد ممكن من الانصار مدة خمس سنوات ( ١٨٠٠ - ١٨٠٥ ) ، واستغل ابن الشريف فرصة هزيمة احدى الحملات التركية امام قبائل الانجاد ليعلن الثورة . وهذه الحادثة التاريخية التي يجمع المؤرخون على اعتبارها فتيل الثورة كانت اول هزيمة عسكرية تهزم فيها قبائل المخزن ، حلفاء الاتراك منذ زمن بعيد (٣٠) .

كانت اولى مراحل للثورة الاذن الذي اعطاه ابن الشريف لاتباعه بنهب اموال وممتلكات هذه القبائل وملاحقتهم اينما كانوا . وقد وصلت انباء انتصاراته الى وهران عاصمة البايليك ، فتام الباي مصطفى العجمي ( ١٨٠٥ / ١٨٠٩ ) ، بتجهيز جيش كبير واتجه به الى ابن الشريف ، الذي كان قد عسكر بجيشه على ضفاف وادي مينة (٣١) ، والتقى الطرفان بقرية فرطاسة ، وكان ذلك ربيع الاول ١٢١٩ / ١٨٠٥ ، حيث دارت اشرس معركة بين الجيش الانكشاري ، تعاضده قبائل المخزن ، والثوار . ودارت الدائرة على الجيش التركي وفر الباي بعد ان تفرق جيشه حتى قال احد المؤرخين المعاصرين يصف هذه المعركة ونتيجتها : « فأمسى الباي ومخزنه في نكد واصبح الدرقاوي واتباعه في رغد » (٣٢) .

وتتبع جيش الثوار الفلول المنسحبة من الجيش التركي حتى اسوار مدينة معسكر ، ولم ينتظر ابن الشريف وصول النجدات من مدينة وهران الى الجيش التركي الذي تحصن بالمدينة ، فقرر دخولها بالقوة ، ولم تصمد المدينة كثيرا فاستسلمت له .



جعل ابن الشريف مدينة معسكر مقرا لاقامته هو واسرته وقاعدة حربية لجيشه، ومنها راح يوجه نداءاته الى كل القبائل لتعلن الجهاد والحرب على الاتراك وادواتهم من قبائل المخزن ويهدد كل رافض لدعوته بالويل والثبور . كذلك دعا القبائل الى مبايعته قائلا لهم في احدى هذه النداءات : « انا نزلت عنكم ما كنتم فيه من اداء الجزية، التي هي حرام على المسلم وقطعنا دابر الاتراك واتباعهم ، فالواجب مبايعتنا والجهاد معنا .. » (٢٣) . وقد وجدت نداءاته هذه نجابا كبيرا من الرعية في الناحية الغربية والوسطى ، ولم يقتصر انضمام القبائل على الخاضعين لسيطرة الاتراك ، بل تعدى ذلك الى القبائل المخزنية حليفة الاتراك مثل قبيلة الحشم ، والزماله والدواير (٢٤) .

وبسرعة فائقة امتد لهيب الثورة ليشمل كل القبائل الجزائرية الواقعة ما بين مدينة مليانة ( الوسط الجزائري ) ووجدة على الحدود المغربية . وامام هذا المد السريع بدأت الحاميات التركية تندحر وانسحب اغلبها الى المدن الساحلية لتحتمي بأسوارها من الغضب الشعبي ، وانقطعت كل الاتصالات مع مدينة الجزائر ، ولم يبق الا البحر المنفذ الوحيد الذي يتم عن طريقه تموين مدينة وهران ، التي سارع ابن الشريف الى ضرب الحصار عليها (٢٥) .

يقول صاحب التحفة : « .. ان باشا الجزائر حاول تجهيز جيش بقيادة مستشاره علي اغا لنجدة المدينة المحاصرة ، لكن القبائل الثائرة اعترضت طريقه والحقت به خسائر فادحة ومنعوه من المرور في بلادهم وكاد جيشه ان يهلك عن اخره بعد ان قطعت عليه القبائل ورود الماء لولا استنجاهه باحد المرابطين في مدينة النطاف (٢٦) . كذلك سارت الامور في غير صالح الاتراك بعد انسحاب الحامية التركية من مدينة تلمسان ومحاصرة الكراغلة في قلعة المدينة ، مما جعل منها مدينة شبه مستقلة .

### اسباب فشل الثورة :

تسببت عدة عوامل في فشل ابن الشريف وجيشه في اقتحام مدينة وهران التي حاصرها مدة ثمانية اشهر مع ان الظروف مواتية ، وخاصة بعد ان تم القضاء على اغلب الحاميات التركية وتشنت جيش الباي في معركة فرطاسة . من هذه العوامل قوة اسوار المدينة وعدم قدرة محاصريها من ايجاد منفذ للتسلل الى داخلها ، لقلة الوسائل وضعف العتاد ، ثم عدم تجاوب سكان المدينة مع دعوة ابن الشريف القيام ضد الاتراك رغم ان القوة التركية المدافعة عن المدينة كانت قليلة العدد (٢٧) . وهذا الاحجام الذي بدر من سكان المدينة وعدم تجاوبهم مع الشوار يرجع الى الاعمال التخريبية التي رافقت هذا الحصار والتي كان يرتبها جيش « ابن الشريف » تجاه

قبائل المخزن واملاكيهم . وهذا ما قضى على التجاوب بين الثوار والطبقة الحضرية القيمة في المدن وضواحيها .

وقد استغل الاتراك ، هذا الشرخ بين سكان الارياف وسكان المدن احسن استفلال بتأليب هؤلاء على اولئك . ولهذه الاعتبارات اخذ الاتراك شيئا فشيئا يسيطرون على الوضع لكنهم لم يتمكنوا من القضاء على المراكز الثائرة الا في المدن الساحلية (٢٨) .

حدث هذا التحول لصالح الاتراك بعد ان عين داي الجزائر الباي محمد المقلش الذي رجح كفة الميزان لصالح الحكومة ، اذ رافقت هذا الباي قوة من الانكشارية قدرت ب ١١٠٠ رجل (٢٩)، وبما ان الطريق البري كان مقطوعا فان هذه القوة من الجنود اتخذت البحر لدخول المدينة المناصرة ، وكان اول اجراء قام به الباي الجديد هو فتح ابواب المدينة واعادة الحياة الطبيعية الى مجراها ، ثم التصدي للثوار .

ويظهر ان الملل والسأم قد تمكنا من معنويات الثوار فاثروا الانسحاب الى الداخل ، لتبدأ سلسلة طويلة من المعارك كلفت الجانب التركي الكثير وادخلت المنطقة في مرحلة من الفوضى السياسية والاقتصادية لم تنته الا بعد سقوط مدينة وهران بيد الفرنسيين . فبعد ان تحقق الاتراك بانه ليس هناك ادنى شك في مناصرة سلطان المغرب للثورة . عمد هذا الباي الى الوسائل الدبلوماسية واستعمال الدهاء السياسي لاتقاء شر الدولة المغربية ، والى اشد انواع القمع والارهاب ضد الثوار (٤٠) ، فعمل على التقرب الى القبائل ذات الصلة بالثورة والتي كانت تتمتع بنفوذ في المنطقة بمصاهرة قبيلة الحشم ، وكانت من الد اعداء الاتراك ، والدافع الذي دفعها الى الارتقاء في احضان الاتراك والاتفاق معهم هو التخوف من القاعدة الشعبية المؤيدة للطريقة الدرقاوية ، التي بدأت تلقى تجاوبا شعبيا واسعا ، وخاصة اذ عرفنا ان هذه القبيلة تنزعها الطريقة القادرية بقيادة الشيخ محي الدين والد الامير عبد القادر، والتي لا ترضى بمنافسة طريقة اخرى لها على القبائل . ويشير صاحب « التحفة » خلال تطرقه الى ابن الشريف الى الاختلاف الذي حدث بين ابن الشريف والشيخ محي الدين (١٤) .

لكن المصادر المحلية لا تشير الى ظهور صراع بين الطريقتين لاكتساب الانصار والمؤيدين ، الا انه يظهر ان شيخ الطريقة القادرية لم ينس الحادثة واراد الانتقام من ابن الشريف ، فأوعز الى قبيلته بالوقوف الى جانب الاتراك . والمعروف كذلك ان الطريقة القادرية كانت على علاقة طيبة بالاتراك منذ دخول هؤلاء الى الجزائر ، والذين استخدموها كمنافس للطريقة الشاذلية الموالية للمغرب . وبهذا تكون الدسياسة التركية قد لعبت دورها في زرع التفرقة بين الطرفين .

وكانت النتيجة ان الثوار بدأ يتراجعون عن المواقع التي كانوا قد احتلوها سابقا. وذلك بعد سلسلة كثيرة من المعارك والاصطدامات ، ومن اهم هذه المعارك معركة اولاد زائر التي خسر فيها الثوار ، حسب المصادر المحلية ، « ستمائة رأس ، بعثها البساي كلها الى داي الجزائر » (٤٢) . وفي اثناء هذه الاحداث انتقل ابن الشريف الى قبيلة الاحرار في الجنوب ، الا انه لم يجد المساعدة من جانب هذه القبائل ، فانتقل الى مدينة الاغواط حيث دخل في مفاوضات مع رجال الطريقة التيجانية للقيام ثانية على الاتراك ، لكنه فشل في مساه . وما زالت الاسباب التي منعت رجال هذه الطريقة ، من تلبية طلب ابن الشريف توحيد الجبود بينهما لاعلان الثورة غير واضحة ، رغم الضغوط التي كانت مسلطة على افراد الطريقة التيجانية من طرف رجال البايليك ، وعلى راسها المخارم السنوية التي كانوا ملزمين بدفعها .

فكان ان انتقل ابن الشريف الى قبيلة بني يزناسن على الحدود المغربية ، ومن هناك توارى عن مسرح الاحداث السياسية .

وقد اختلفت المصادر المحلية والاجنبية حول تحديد تاريخ ومكان وفاة ابن الشريف ويتفق صاحب « أنيس الغريب والمسافر » وصاحب كتاب « دليل الحيران » ، على ان المقام استقر به عند قبائل بني يزناسن ، وهناك « ترك الفضول لعدم طاقته » (٤٣) اما المؤرخ الفرنسي Degrammont فيؤكد من جانبه ان ابن الشريف لقي مصرعه اثناء محاولته استعادة مدينة معسكر للمرة الثانية سنة ١٨٠٦ (٤٤) . اما السيدان Estharzy, Deneuve فيذكران ان ابن الشريف قد مات بوباء الطاعون في مدينة مسيردة ، لكن دون ذكر تاريخ الوفاة (٤٥) . وهذه الاختلافات في وجهات النظر بين هؤلاء المؤرخين مرجعها الفموض الذي احاط بالثورة الدرقاوية في تلك الفترة . والوحيد من المؤرخين الذي عارض فكرة موت ابن الشريف سنة ١٨٠٩ ، هو Noel ، الذي ذكر انه ظهر مرة ثانية سنة ١٨١٦ ، واثار القبائل الصحراوية ومن بينهم قبائل الاحرار واتجه بهم لمقاتلة الاتراك ، لكنه هزم وانسحب نهائيا الى واحة فقيق (٤٦) . وهذا ما ذهبت اليه احدى الوثائق التركية التي تبين ان الثورة استمرت حتى سنة ١٨١٦ ، فهي تشير الى الخسائر التي تكبدتها العساكر التركية وتلح على الاستانة للاسراع بارسال النجدة العسكرية لمواجهة هذا الثائر (٤٧) .

في النهاية ، لابد لنا من التساؤل : هل كانت ثورة الطريقة الدرقاوية في الناحية الغربية من النياية مجرد محاولة سياسية قام بها سلاطين المغرب الأقصى ، العدو التقليدي لاتراك الجزائر ، بواسطة اعوانهم ، لاختبار مدى قوة النظام التركي المجاور لهم بعد ان فشلوا في مواجهته عسكريا ، فحاولوا ان يفجروه من الداخل باثارة الفتن والاضطرابات عن طريق اغراء ابن الشريف بواسطة شيخه مولاي العربي الدرقاوي

للقيام بالثورة . وبالتالي ارغام الانراك على الاعتراف بالحقوق التاريخية للمغرب في  
الجهة الغربية من النيابة . . ٢

لا ننفي ان الثورة استفادت من التأيد المعنوي والروحي من جهة المغرب ، لكن  
المد السريع للثورة الذي وصلت تأثيراته حتى ضواحي دار السلطان ، مقر الحكومة  
المركزية ، لا يمكن ان يفسر فقط بهذا السبب ، بل بذلك الحقد والعداء الذي خلقتة  
تناقضات النظام التركي في نفوس السكان تجاه الطبقة التركية المتسلطة التي تسومهم  
انواع الاضطهادات والقهر والاستغلال ، بفرض الضرائب وتجريد الحملات العسكرية  
على الريف الجزائري . لهذا وجد السكان في شخصية ابن الشريف ، وامثاله من  
الذين تزعموا ثورات القرن التاسع عشر ، متنفسا لهم ، يشكون اليهم مالحقهم من  
تعسف واستبداد هذه الطبقة وأدواتها الاخرى التي اغفلت شؤونهم الضرورية واهتمت  
بالركض وراء السلطة وجمع الاموال وتسببت في ضياع موارد واملاك السكان ، وهذا  
ما دفعهم الى الثورة ضد الاتراك .

ورغم ان هذه الثورات ، رفعت في اغلب الاحيان شعارات دينية وتستررت وراء  
مطالب قبلية ، الا انها في حقيقة امرها كانت تعبيرا صادقا عن سخط الرعية وعدم  
رضاها على الاوضاع السياسية والاقتصادية التي كانت سائدة في عهد الحكام الاتراك.



---

حصل الباحث على شهادة الماجستير في التاريخ برسائلته (( الثورات الشعبية في الجزائر من اواخر  
القرن الثامن عشر حتى الاحتلال الفرنسي )) ، باشراف الدكتور محمد خير فارس .

## مصادر ومراجع البحث :

- (١) Ernest, M., L'Afrique Septentrionale berbérie depuis les temps les plus recules jusqu'à la conquête Française, t.I, Leroux, Paris 1891, P. 230.
- (٢) Boyer, P., Contribution à l'étude de la politique religieuse des Turcs dans la régence d'Alger, XIV - XVI, p. 28
- (٣) ويليام شالر : مذكرات ويليام شالر - قنصل امريكا ١٨١٦ - ١٨٤١ ، ترجمة وتعليق اسماعيل العربي ش.و.ن.ت. الجزائر ١٩٨٢ ، ص(٤٦-٤٧).
- (٤) Laugier de Tassy, Histoire d'Alger et du bombardement de cette ville en 1816, Pittan, Paris 1839 .
- (٥) مفضية الازرق ، نشوء الطبقات في الجزائر ، ترجمة سمير كرم ، بيروت ١٩٨٠، ص ٣٦
- (٦) عزت عبد الكريم ، مقدمة من كتاب حوادث دمشق اليومية للبديري الحلاق ، لجنة البيان العربي، القاهرة ١٩٥٦ ص ٢٧.
- (٧) الزباني محمد بن يوسف ، دليل الحران وانيس السهران في اخبار مدينة وهران، وتحقيق وتقديم الشيخ المهدي البوعبدلي ، ش.و.ن.ت. الجزائر ١٩٧٩ ، ص ٧٣.
- (٨) من رسالة ارسلها محمد بن رايس العين الاندلسي الى الاستانة اوردها الشيخ البوعبدلي في مقدمة للكتاب السابق ، ص ٥٩ .
- (٩) التميمي عبد الجليل ، العرب والأتراك في اطار الدولة العثمانية ، المجلة التاريخية المغربية ، تونس ، العدد ١٧-١٨ ، ١٩٨٠ ، ص ٩١ .
- (١٠) Degrammont, H-D., Histoire d'Alger sous la domination Turque, Lerou, 1887, P. 309.
- (١١) Benachanhou, A., L'Etat Algérien en 1830, S.N.E.D., Alger, (S-). p. 29.
- (١٢) Commerce de barbarie, A.A.Marseille ( S;I ) , Article n, 1880, Objets commerce de barbarie presents au puissans du royaume d'Alger. ( S.O), P. 29.
- (١٣) Vatin, J. C. , « l'Algerie en 1830 » , Revue Algérienne des sciences Juridiques , economiques et politiques, vol. VII, n.14, 1970, p. 1943.
- (١٤) Benachanhou, op. cit ., p. 29.
- (١٥) Lespes, R., Alger (Etude de géographie et d'histoire Urbaines ), Paris, Alcan, Alger , p, 146.
- (١٦) سلفاتور بونسو ، العلاقات بين الجزائر وايطاليا خلال العهد التركي ، ترجمة ابو القاسم بن القومي ، مجلة الاصاله ، العدد ٤٨ ، ١٩٧٨ ، ص ١١٨.

Emérit, M., la situation économique de la régence d'Alger 1830, (١٧)  
in *Information historique*, 1952, t. II, p. 169.

Roy, J.E., *Histoire de L'Algérie depuis les temps les plus reculés* (١٨)  
jusqu'à nos jours, A.Maine Tour, 1864, P. 142.

(١٩) حول هذه الحملات انظر :

Federman et Aucapitaine, « Notice sur l'histoire de l'Administration  
du beylick de Titterie » in *Revue Africaine*, 1867, t. IX, pp. 291-293.

Emerit, M., « Les Aventures de thednat », in *R.A.* 1948, p. 40. (٢٠)

(٢١) أبو القاسم الزياني ، الترجمان المغرب في دول المشرق والمغرب ، نشر جزء منه هنري هوانس ،  
المغرب - باريس ١٨٨٦ ، ص ١٠١ .

(٢٢) قال في هذه الرسالة ، وقررت ان لا ابشر فيها الا بعد فصل الشتاء لان الطرق في هذا الموسم  
تكون صعبة والادوية مرتفعة المستوى .. وفي الربيع القادم سوف اتى انا بنفسى باذن اللهمرفقا  
بمساكري الظافرة لتابعة مشاربي باذن الله ، وعليك باخبار سيدى عبد القادر .. بالاتحاق بى  
حينما يسمع بوصلى الى وجدة .

Drague, G., *Esquisse d'histoire religieuse de Maroc*, Cahier de l'Afrique  
et de l'Asie, Peyonnet, Paris, p. 235.

(٢٣) يقول السلواي عن هذه البيعة « ان سكان مدينة تلمسان فتحو باب المدينة الى ابن الشريف  
وطائفته واخذ البيعة بها للسلطان ... وحط به على منابرهما ، ووجه وفده وهديته الى  
السلطان مع شيخه ابي عبد الله المذكور . الاستقصاء لخبار دول المغرب الاقصى ، الدار البيضاء  
١٩٥٦ ، ص ١١٠ .

(٢٤) رد عليه السلطان « .. وصلتني رسالتك واسأل الله ان يجازيك على افعالك الحسنة بجاء  
المسلمين الذين لا نرجوا لهم الا السلام والطمانية .. وعندما تاتي لزيارتي ، ساطلب رأيك فيما  
يجب اتخاذه وعمله في البلاد التي انت فيها .. » انظر الناصري ، المصدر السابق ، ص ١١٠ .

(٢٥) الناصري ، ص ١٠٩ - ١١٠ .

Brosselard, Ch., *Les khouans de la constitution des ordres religieuses*,  
Alger 1895, P. 227.

Drague, op. cit., P.254. (٢٦) الناصري - الاستقصا .

(٢٧) الناصري ، المصدر السابق ، ص ١٠٩ .

(٢٨) الزياني محمد بن يوسف ، المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .

(٢٩) الزياني أبو القاسم ، المصدر السابق ٢٠٩ .

(٣٠) حسين خوجة ، درء الاعيان في اخبار مدينة وهران ، ترجمه ونشره السيد روسو في جريدته  
لومونتور الجيريان ١٨٥٥ ، رقم ١٢٩٥ - ١٢٩٨ .

(٣١) وادي مينا : واد ينبع من اقليم النجود وطوله ١٩٥ كم ، يمر بمدينة غليزان ويصب بشمالها في  
نهر الشلف . وله فرع هو وادي العبد يسير نحو الشمال ويلتقي بوادي مينا عند قرية فرطاسة .

- (٢٢) مسلم بن عبد القادر ، انيس الغريب والمسافر ، تحقيق رابع بونار ، ش.و.ن.ت. الجزائر ١٩٧٤ ، ص ٧٣ .
- (٢٣) حسين خوجة ، المصدر السابق . ص ١٣٩٥ . الزباني محمد بن يوسف ، المصدر السابق ص ٢٠٩ . مسلم بن عبد القادر ، المصدر السابق ص ٧٤ .
- (٢٤) Delpeche , A., « Résumé historique sur le soulèvement des derkaoua la province d'Oran , » in R . A . 1837 , p . 44 . Caporal' X., Oran Capitale de beylick de Louest 1792-1831, Mémoires, pp, 50-51.
- (٢٥) محمد بن الامير عبد القادر ، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والامير عبد القادر ، شرح وتطبيق مهدوح حقي ، ط ٢٠ ، دار البقعة العربية ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ١١٥ .
- (٢٦) محمد بن عبد القادر ، نفس المصدر ، ص ١١٥ .
- (٢٧) استمر حصار مدينة وهران من طرف ابن الشريف حوالي ثمانية اشهر ، انظر :
- (٢٨) جوليان ، شارل اندري ، « التدخل الغربي غدا ، احتلال العاصمة الجزائرية سنة ١٨٣٠ » ، ديسمبر ١٩٦٤ ، مجلة البحث العلمي ، الرباط ، ص ٢٦١ .
- De Jardin, V., « La Commune de dublineau les hachems sous le gouvernement Turcs , » in Bulletin, S.G.O., 1950, p. 45.
- (٢٩) Rotalier, Ch., Histoire d'Alger et la piraterie des Turcs dans le Méditerranée, t. II, Paris 1841, p. 591.
- (٣٠) عبد الرحمن الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ج ٢ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٩ ص ٢٩١ .
- (٤١) اشار الى هذا الخلاف صاحب التحفة اذ قال : « وفي بعض الايام تكلم بحضرته بما يوجب تاديبه شرعا ، فادبه سيدي الجد بالسياط . » ص ٢١٥ ، محمد بن الامير عبد القادر ، المصدر السابق .
- (٤٢) مسلم بن عبد القادر ، المصدر السابق ، ص ٩١ .
- (٤٣) مسلم بن عبد القادر ، المصدر السابق ٩٨ .
- الزباني محمد بن يوسف ، ص ٢٢٨ .
- (٤٤) De grammont, op. cit. P. 364.
- (٤٥) Noel, A.H., « Documents, pour servir à l'histoire de hamgan et de la région qu'ils occupent actuellement, » B.S.G.O., 1925, p. 166.
- (٤٦) عبد الجليل التميمي ، بحوث ووثائق من التاريخ المغربي ٨١٦-٨٧١ ، الدار التونسية للنشر ، تونس ١٩٧٢ ، الوثيقة الرابعة ، جوان ١٨١٦ ، ص ٢٤٠ .